وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعـــــــــــة المثنى
كليـــــــــــة الآداب
قســـــــــــم الاثـــار
المرحـــــــلة الرابعة

تاريخ الشرق الأدنى القديم
(بلاد الشام)

مدرس المادة
م.م. هيثم عقيل عويز

تعيش فى أوجاريت وجبيل .[١] وجاء فيما كتبه هيرودوت أيضا أنهم بنوا معبدا هناك للمعبودة عشتارت . ويفهم من هذا أن الفينيقيين أقاموا فى مناطق الموانئ التجارية التى تحقق الكثير من أغراضهم وأهدافهم التى رسموها لأنفسهم من البداية .

ومن مصر انطلقوا إلى بقية شمال أفريقيا ، ويذكر أن ملك صور (صيدا) أيتو بعل أسس مدينة فى ليبيا ولم يتمكن العلماء من تحديد موقعها . كما كان لهم وجود فى الجزائر فقد عثر على لوحة مستطيلة فى قسطنطينية بالجزائر (هى الآن بمتحف اللوفر بباريس) كانت مخصصة للمعبود تانيت ومكتوبة بالخط الفينيقى القرطاجى .

كما أقام الفينيقيون فى تونس أكثر من مركز تجارى ، فأقاموا مركزا فى مدينة أوتيكا أو عوتيقة (بمعنى القديمة أو العتيقة) تمييزا لها عن قرطاجة (قرط حداشت) ، وذلك فى حوالى عام ١١٠١ ق. م . وقام بذلك أهالى مدينة صور وكانت قريبة من مصب نهر مجردة ولكن هذه المدينة العتيقة خربت وهجرها أهلها وغطتها الرمال . وهناك أيضا مراكز أخرى فى بنزرته وسرته وغيرها .[٢]

قرطاجة :

يعتبر تاريخ قرطاجة جزءا هاما من تاريخ الفينيقيين (البونيقيين) نظرا لما حققوه ونظرا للدور الذى أدوه فى مولجهة قوة روما وما أنجزه عظماء رجالها وقوادها .

---

(١) د. أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ص ١١٤ ؛ د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٨٧ ، ١٣٩ ، ١٦٠ ، ١٨٣ ، ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ١٠٤ - ١١٦ ؛ المؤلف نفسه ، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٣٨ - ١٤٨ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٤٧ - ٢٥٠ ، ٢٤٨ - ٢٧٩ ، ٣٣٢ - ٣٣٣ ؛ د. أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ، ص ٦٧ - ٧٠ .

وتحكى الأساطير أن الفضل فى تأسيس قرطاجة يرجع إلى ابنة ملك صور فهى تروى أن متان حفيد ايتو - بعل أنجب ابنة تدعى اليسا وأبا يدعى بيجماليون . وأن اليسا اعتلت العرش فترة قصيرة ثم عزلت وأصبح أخوها بيجماليون ملكا على صور وقام بقتل زوجها فهربت إلى قبرص بعد أن تعرضت لبعض المتاعب ومن قبرص اتجهت إلى شمال أفريقيا ونزلت بالموقع الذى عرف فيما بعد باسم قرط حداشت وقد حرفه اليونان إلى " كارتاجا " والرومان إلى " كارثاجو " والعرب إلى قرطاج أو قرطاجة أى المدينة الجديدة .[١] وهناك أمكنها أن تؤسس مركزا تجاريا ومدينة بمعاونة أنصارها الصوريين .[٢] ولم يعثر حتى الآن فى أطلال قرطاجة أو فى مدينة صور على ما يؤيد هذه الأسطورة .

ويذكر د. الناصرى أنها " أسست ما بين أعوام ٦٧٣ - ٦٦٣ ق. م . وليس كما كان يعتقد سابقا ما بين ٨٦٠ - ٨١٤ ق. م " .[٣] اعتبرت نفسها جزءا من مدينة صور ، وكانت ترسل كل عام رسولا ليقوم بتقديم القرابين فى صور فى معبد " ملك - قارت " (ملقارت أى ملك القرية) . وكان المبعوث فى بدء الأمر يحمل معه أيضا هدية أخرى وهو ما يمثل عشر دخل المدينة الجديدة من التجارة .

---

(١) د. سيد الناصرى : تاريخ الرومان من القرية إلى الإمبراطورية ، دار النهضة العربية ١٩٧٦ ، ص ١٣٣ حاشية (١) .

(٢) د. أحمد فخرى : المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ؛ أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٤١ ، ٦٣ - ٦٦ . ويذكر د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ ، أنه عثر فى قرطاجة على بقايا مرسى حربى ومرسى داخلى آخر .

(٣) د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

لعبت قرطاجة دورا هاما فى تجارة البحر المتوسط ، وانهالت عليها الثروة ، ويذكر د. الناصرى بهذا الصدد أنها " أصبحت من كبريات المراكز التجارية الفينيقية على ساحل البحر المتوسط ، بل أصبحت بدورها مؤسسة لعديد من المدن التجارية فى جزيرة صقلية وفى أسبانيا وسردسنيا . وكانت عبارة عن قلعة لها حصن طبيعى يحمى السفن من هياج البحر ويحتمى من خلفها التجار والزراع مما أعطاها السيطرة على غرب البحر المتوسط ومن ثم استحقت لقب " ملكة البحار " . وكانت أشبه بجمهورية صغيرة تحكم بواسطة النبلاء والأشراف الذين حافظوا على نقاء دمائهم الفينيقية " .(١) ولم يكن البحر هو مصدر الثراء الوحيد لهذه الجمهورية الصغيرة بل هيمنت على سهل غنى بالخيرات هو سهل " باجراداحى " وعلمت سكانه من البربر طريقة فلاحة الأرض وزراعتها . كما عمل بالزراعة الجنود المرتزقة الذين كانوا يكونون نواة جيشها وذلك بعد تسريحهم " .(٢) " وكان نظام الحكم فى قرطاجة يقوم على أربعة مؤسسات هى : الشوفيتيم وهما القاضيان اللذان ينتخبان سنويا ، ثم مجلس الشيوخ الذى كان يتكون من ثلاثمائة عضو ، ومجلس العامة ثم المحكمة العليا وكان عدد أعضائها مائة عضو ، وباستثناء مجلس العامة كان الأغنياء يسيطرون على أجهزة الحكم سواء كانوا تجارا أم إقطاعيين . وحتى قادة الجيش القرطاجى كانوا عادة من الأثرياء " .(٣) وأخذت قرطاجة بدورها تؤسس لها مراكز جديدة ، مثل المدينة التجارية التى أسسوها فى جزيرة " ايفيشا " بين سردينيا وأسبانيا فى حوالى عام ٦٦٥ (؟) ق.م . كما أسسوا مركزا آخر على شواطئ مينوركا فى جزر البليار وأصبحت مراكبهم تمخر عباب البحر المتوسط فتربط بين مركز وآخر وبين المدن الناشئة وبين المدينة الأم صور . ولم تمض برهة من الزمن حتى أصبحت مراكزهم منتشرة فى جميع البلدان المطلة على المتوسط .

---

(١) د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

وفى الواقع أن الفينيقيين أنشأوا علاقات تجارية مع جميع المدن بالموانئ فى الغرب ولم يكتف الفينيقيون بهذا الخط البحرى الهام فى البحر المتوسط فنجد أنهم استخدموا ميناء أيلة لمراكبهم القادمة من المحيط الهندى وجنوب الجزيرة العربية والتى كانت تنقل الأخشاب والنحاس لتعود بالذهب من بلاد أوفير (ربما عمان قديما أو ربما بلد آخر (؟)) وبالبخور والعطور والتوابل من جنوب الجزيرة العربية . وقد عثر على تمثال يشبه معبود صور ملقارت فى خرائب عمريت فى مأرب عاصمة سبأ مما يدل على وجود الفينيقيين بالمنطقة .(١)

ويذكر الجغرافى سترابون أسماء جزيرتين فى الخليج العربى اسم إحداهما صور والأخرى ارواد فيهما هياكل تشبه الهياكل الفينيقية . ويضيف قائلا أن أهل هاتين الجزيرتين يعتبرون المدينتين الفنيقيتين المسميتين صور وارواد مركزين من مراكز التجارة ، وهذا هو الأرجح .(٢)

كانت التجارة الفينيقية فى معظمها بحرية ، وكانت السيادة البحرية من نصيب صيدا أولا ، فمارست هذه الرئاسة على جنوب لبنان ، بما فى ذلك صور حتى عام ١١٧٠ ق. م . وما أن استهل القرن العاشر حتى أصبحت صور مدينة دويلة قوية . غير أنهم إلى جانب اهتمامهم بالتجارة البحرية يمارسون التجارة البرية أيضا ، فكانت لهم تجارة برمائية . وقد أنشأوا لهم طرقا برية تربط بين مواتيهم على البحر المتوسط وبين محطاتهم البحرية فى منطقة الخليج . ومن أهم قواعدهم البرية كانت مدينة الرها (ورفا) واسمها الكلاسيكى ايدسا ، وربما كانت مدينة نصيبين . كما اهتموا بطرق القوافل البرية التى تأتى من جنوبى الجزيرة العربية والتى تمر بمحاذاة الشاطئ شمالا مارة فى صور وصيدا وجبيل ومدن ساحلية أخرى فكانت القوافل البرية تسلك طرقا عبر الجزيرة العربية فالصحراء السورية إلى أن تنتهى إلى

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٣٦ - ١٣٧ ، ٢٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٣ -١٣٧ .

المناطق الشرقية من شاطئ البحر المتوسط . وكانت القوافل القادمة من سبأ ومعين وقتبان وحضرموت وحمير تمر من الفاو متجهة إلى اليمامة والخليج وبلاد الرافدين وبلاد الشام فكانت الفاو مركزا تجاريا واقتصاديا هاما فى وسط الجزيرة العربية وتربط بين جنوبها وشمالها وشمالها الشرقى .[١]

والقوافل التى كانت تغادر المدن الفينيقية كان باستطاعتها أن تسير شمالا فى محاذاة الشاطئ إلى اللاذقية ، أو أن تنحرف شرقا شمالى طرابلس إلى حمص . أما إذا كانت وجهة القوافل جنوبا فإنها تنحرف شرقا إلى المدن الداخلية عند مشارف صور .

أما الطرق التجارية البرية فكانت توجد فى شمالى سوريا وكانت تتشعب إلى طريقين . الأول يسير باتجاه غربى إلى آسيا الصغرى والآخر شرقا مارا بشمال العراق القديم وإيران إلى الطريق الكبير المؤدى إلى مصادر الحرير إلى الهند والصين ، ثم إلى الشرق الأقصى .[٢]

بالإضافة إلى الدور الذى قام به الفينيقيون فى تنشيط تجارة العالم القديم والمراكز والمدن التجارية التى أنشأوها ، نجد أنه كان لهم دور هام فى نقل مختلف السلع والبضائع . وكان قوام التجارة البحرية بضائع أو مواد من نتاج أرضهم مثل الأخشاب والمنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية الأصباغ الأرجوانية ودباغة الجلود والفراء والزجاج والمصنوعات المعدنية وغيرها .

ولم يهتم الفينيقيون فقط بالمؤسسات التجارية فى الخارج بل اهتموا أيضا برحلات الكشوف الجغرافية عن طريق البر والبحر .

---

(١) د. رمضان عبده : تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته ، الجزء الثالث ، دار نهضة الشرق بحرم جامعة القاهرة ٢٠٠١ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ حاشية .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٧ - ٢١٣ .

فقام هانون القرطاجى برحلة بحرية للكشف عن سواحل أفريقيا كما جاء ذلك فى وصف بلينى[١] وكان معه ٦٠ سفينة و ٣٠ ألف رجل وتوجه إلى الشاطئ الغربى لأفريقيا ووصل حتى وسط خليج غانا ومرتفعات كمرون .[٢]

ولم تكن رحلة هانون هى رحلة الكشف الوحيدة ، فقد قام هيميلكو برحلة أبحر فيها إلى الشمال حول أيبيرية . وقد جاء وصف هذه الرحلة فى كتاب جغرافى رومانى من القرن الرابع الميلادى . وقد جاء وصف هذه الرحلة أيضا عند بلينى وكان الغرض من رحلة هيميلكو بدون شك هو فتح طريق للتصدير فى الغرب ، وغالبا جاء ذلك نتيجة لنفاذ المناجم الأسبانية . وليس لدينا أدلة قاطعة عن تفاصيل رحلته وغالبا ما وصل إلى إنجلترا . أما الرحلة الثالثة فقد أمر بإرسالها الملك المصرى نيكاو الثانى وكان ضمن بحارتها جماعة من الفينيقيين الذين أبحروا إلى البحر الأحمر للطواف حول سواحل أفريقيا . وقد قاموا بهذه الرحلة فى ثلاث سنوات . وكانوا يتوقفون كل عام بين موسم البذر والحصاد للتزود بالمؤن قبل الاستمرار فى رحلتهم .

كما ذكر ديودور الصقلى أن بعض سفن قرطاجة قد أبحرت إلى المحيط الأطلنطى[٣] أما من ناحية الكشف البرى الذى قام به الفينيقيون فى الصحراء ، فقد ذكر كاتب يونانى من القرن الثانى الميلادى أن أحد القرطاجيين واسمه " ماجو " قد عبر الصحراء ثلاث مرات . وقد ذكر هيرودوت أن خمسة أشخاص من جماعة تسمى " ناسا موتر " قاموا برحلة عبر الصحراء الكبرى إلى مدينة يسكنها أقزام زنوج .[٤]

---

(١) د. أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ص ١١٦ ؛ د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٢٨٠ .

(٢) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٢٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٣٣ .

الحروب التى نشبت ضد المدن الفينيقية فى الداخل ومراكزها التجارية فى الخارج :

تعرض هدوء واستقرار المدن الفينيقية فى الألف الأولى ق. م . للاضطرابات بسبب ظهور دولة أشور فى الشرق كدولة قوية اجتاحت سوريا ولبنان وأخضعتهما لسيادتها . وعجل ذلك بزوال سيادة صور وعظمتها فى القرن الثامن وأوائل السابع ق. م . وهى المدينة الرئيسية التى احتفظت بدور الريادة ، وظلت هكذا حتى قضى عليها نابوخذ نصر وانتقلت السيادة بعدها إلى صيدا . ومما ساهم فى ضعف صور هو قيام المراكز اليونانية المنافسة لها . فانتقل مركز الثقل إلى قرطاجة التى كان عليها الآن أن تحافظ على المراكز التجارية الفينيقية وتحميها من الأعداء اليونان والرومان وذلك بفضل موقعها الجغرافى وقوة أسطولها البرى .

حملات الآشوريين :

تهيأت الفرصة أكثر من مرة لملوك آشور ، للتدخل فى شئون سوريا خلال الألف الأولى ق. م . وخاصة فى شئون مملكة سامال (اليوم زنجرلى) إحدى المراكز الهامة إلى جانب قرقميش على نهر الفرات ، والتى كانت تدخل ضمن التحالفات الحيثية .

حاول الآشوريون أن يجدوا منفذا لهم على البحر المتوسط فتقدموا بجيوشهم إلى الناحية الشمالية من فينيقيا واستطاعوا أن يخضعوا بعض المدن هناك .[1]

فعندما اعتلى تيجلات بلاصر الأول عرش آشور (١١١٢ - ١٠٧٦ ق. م) قام بحملة أخضع فيها سوريا العليا لسلطانه وفرض الجزية على أرواد سنة ١١٠٠ ق. م . وبيبلوس وصيدا . مع أنه من المرجح أنه لم يخض معركة فعلية ضد هذه المدن .

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٧٣ - ١٨٣ .

ولما اعتلى أشور ناصر بال الثانى العرش فى آشور (عـــام ٨٨٣ - ٨٥٩ ق. م) قام بالزحف على شمال سوريا فدخل لبنان وسـار بجيشـه جنوبـا بمحـاذاة الشاطئ دون أن يلقى مقاومة تذكر . وقام بفرض الجزية على صور وصيدا وجبيـل وارواد . وذكر فى نقش له حفره على جدران معبد شيده فى عاصمته فيه الكثير مـن المبالغة ، ويقول فيه :

" لقد استوليت على معظم جبال لبنان وبلغت بحر آمورو ، البحر العظيـم . وقد غسلت الدماء عن أسلحتى فى الغمر العظيم ، وقدمت ذبائح مـن الغنـم لجميـع المعبودات . وقد دفع الجزية أهل الساحل اللبنانى : أهالى صـور وصيـدا وجبيـل ومهلاتا (؟) وميزا (؟) وكيزا (؟) وآمورو وارواد (الجزيرة) دفعـوا جزيـة ذهبا وفضة وقصديرا ونحاسا وآنية نحاس وثيابا كتانية مزركشـة زاهيـة الألـوان وقروط كبيرة وصغيرة وأبنوس وخشب الصندل وعاجا وأنياب بقر البحـر وتقلبـت منهم الجزية وارتموا على قدمى يقبلونها " .(١)

أما شالما نصر الثالث (٨٦٠ - ٨٢٥ ق. م) فقد حارب ملك ارواد لأنـه خرج عن طاعته واضطرت ارواد إلى دفع الجزية ابتداء مـن حوالـى سـنة ٨٥٠ ق. م . وعثر فى بلاوات بصور على ألواح من البرونز تشير إلـى هـذه المعـارك وأغلب هذه الألواح محفوظ بالمتحف البريطانى بلندن . وهى تعدد المدن الفينيقية وقد جاء أهلها يحملون لملك آشور هداياهم . ففى سنة ٨٤٢ ق. م . استسـلمت المـدن الفينيقية للسيطرة الآشورية اسميا وهذا ما يقوله شالما نصر الثالث نفسه : " وقد تقبلت الجزية من أهالى صور وصيدا . وقد دفع الجزيـة ملـك العـبرانيين جيحـو بـن عمرى " .

وبعد أن اعتلى اداد نيرارى الثالث العرش فى آشور قام بحملة على سـوريا سنة ٨٠٥ ق. م ، وهى الحملة الوحيدة التى قام بها هناك . ثم نعمت سوريا وفينيقيـا

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٧٣ ؛ د. أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ، ص ٢٨ - ٢٩ ، ٣٥ - ٣٦ .